مقدمة

كانت الثقافة ولا تزال إحدى حوائط الصد القوية فى مواجهة القوى الظلامية التى تتربص بالأمة ، وكان المثقفون بفكرهم التنويرى أشرعة لاجتياز لجة التخلف إلى شواطئ العدل والحرية والقيم الإنسانية الرفيعة ، لكن ما بين الحين والآخر يطل ذلك الوجه الظلامى ليصادر الإبداع من خلال منظوره الضيق متذرعا بتأويلات واهية وادعاءات لا تملك من المصداقية شيئا .

وربما تعود سطوة هذا الاتجاه إلى البنية الاجتماعية التى تميل إلى المسالمة والدعة ، ويكون يقينها الدائم هو المسلمات وأخواتها فهذا المجتمع عنده قدر كاف من الاستعداد للكبت والقهر ومصادرة الأفكار ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هناك مسئولية كبرى على الثقافة التنويرية التى انغلقت على نفسها وجاءت فى أطر فردية تفتقد فى معظم الأحيان إلى صيغ جماعية تؤدى - فى النهاية - إلى تخليص المجتمع من خرافاته وأساطيره ، وتنقية الخطاب الدينى من الإسرائيليات والبدع التى يتشبث بها المتشدقون الذين جاءت ثقافتهم الأساسية من كتب الأرصفة بعيدا عن المنهج الصحيح للدين الإسلامى .

وقد عمد الرقيب - دائما - فى مصادرة الأعمال الأدبية والإبداعية والفكرية إلى ثلاثة أسباب أسماها بـ " مجاوزة الخط الأحمر " وربطها بالمحرمات الثلاثة - على حد تعبيره - وهى : " الدين والسياسة والجنس "

والرقابة - بصفتها أداة للمنع والحجب - لا تلجأ فى كثير من الأحيان إلى صيغ تأويلية تبرهن على صدق دعواها ، نظرا لأنها - عادة - ما تأخذ بظواهر الأمور دون تمعن أو إعمال نظر .
والرقيب عادة - لا يدقق فى العمل الذى يريد مصادرته ، بل يتعامل مع النص " بشكل إنتقائى " لا يعتمد على رؤية منهجية بحثية كلية تعتمد على

بعد منطقى وسوسيولوجى يملك حق تأويل وتفجير البنية المجازية التخيلية لذلك النص .

وهنا تولد ما يمكن أن أسميه بـ " الرقابة العمياء " التى لا تستطيع أن تميز بين الغث والسمين ، ولا بين الإبداع الزائف والإبداع الحقيقى .

وتدعى تلك الرقابة أنها تدافع عن الإبداع وحرية الفكر مستغله الوعى المغيب للجماهير بفعل القهر الاجتماعى السياسى وتخلخل البناء الطبقى لتهميش الأغلبية مقابل تصعيد الأقلية أو بمعنى أدق الانتصار للفرد ضد الجماعة ، وهذا ما أوجد - من وجهة نظرى - المجتمع النخبوى بتجلياته المختلفة .

ويأتى هذا الكتاب كمحاولة أولى لرصد أهم قضايا المصادرة فى العالم العربى خلال السنوات العشرين الماضية مع إضفاء البعد التاريخى ودلالته على اللحظة الراهنة ، مؤكدا أن جراح اليوم نتيجة طبيعية لأشواك الماضى ، وأن ما تحصده الثقافة العربية على امتداد الوطن العربى من هزائم متتالية من قوى التخلف والرجعية وأصحاب الفكر الشعوبى الطائفى وميليشيات الغدر والإرهاب والتى تترصد وتتوعد كل فكر خلاق يحاول بناء عالم جديد قائم على الجدل النظرى ، كل ذلك يأتى كمحصلة أخيرة للوعى الناقص للتعامل مع مفهوم الحداثة ، التى نظر إليها المثقفون العرب من الخارج دون أن يتعمقوا فى البنية التحتية للثقافة العربية ، تاركين المجال لطيور الظلام تعربد كيفما شاءت فى عقول الشباب الذين راحوا يبحثون عن بديل للوطن المقهور الذى أهدى لهم البطالة والعجز على طبق من حديد صدئ ، فوجدوا أنفسهم أمام دعاة التكفير وجماعات التأسلم الذين ملؤا عقولهم بأفكار شيطانية ، مما جعل رصاصات الإرهاب تعلو فوق أصوات التنوير ، وامتلأت الشوارع بدماء الضحايا من الرجال والنساء والأطفال ، وأيضا المفكرين أمثال د - فرج فوده ود - حسين مروة ومهدى عامل من " لبنان " والمفكر اليمنى جار الله عمر الأمين العام للحزب الإشتراكى اليمنى ، وكذلك أكثر من ١٥٠ صحفيا جزائريا حصدتهم يد الإرهاب والنزاعات

العرقية .

وقد حاولت قدر الإمكان فى هذا الكتاب أن يكون أقرب إلى الصورة التوضيحية لمجمل قضايا المصادرة وما يتعلق بها ، بما يتضمنه من مقالات وحوارات وشهادات لمبدعين عاشوا الأزمة واكتووا بنارها فى ظل محاكم التفتيش الجديدة التى تذكرنا بالعصور الوسطى - رغم أن ذلك قياس مع الفارق - فبالرغم من دعاوى الحداثة وما بعدها والعولمة وغيرها من المصطلحات فإن هذه العصور الوسطى التى نصفها - دائما - بالتخلف كانت أكثر هدوءا ، وحالات المصادرة لم تكن بهذا الكم أو تلك الفظاعة والشراسة ، فالآن نحن معرضون - يوميا - لقراءة أخبار هنا أو هناك عن كتب مصادرة وكتاب يمثلون أمام القضاء فى قضية رأى ، وأساتذة جامعيين يفصلون من الجامعة بسبب وقوفهم ضد أباطرة المحسوبية والنفاق العلمى . . وهكذا نجد أنفسنا فى النهاية أمام تراجيديا مأساوية كتبت بإحكام شديد من قبل فئة تتاجر بحرية الكتابة من أجل أغراض سياسية تكمن وراء خطابها التكفيرى البغيض ..

ولكن هؤلاء عليهم أن يعلموا بأنه لو كان للمصادرة يوم فإن للحرية أعواما قادمة .

عيد عبد الحليم
القاهرة فى إبريل ٢٠٠٥